

إسبانيا وكوكو
مفاوضات سنتي 1598 و1610
ببير بوايي (Pierre Boyer)
مجلة الغرب المسلم والمتوسط عدد: 8 ، 1970 ، ص ص 25-40
Revue de L'Occident musulman et de la méditerranée, n 8, 1970.

يذكر كارلوس ر. خوليا سان-سير، في مؤلفه «فيليب الثالث وملك كوكو»، وثيقة مجهولة المؤلف، تُنسب إلى برناردينو دي إسكالانتي، من سانتاندير، تذكر اتصالاتٍ جرت بين مدريد وكوكو سنة 1598. ومع أسفه لعدم معرفته أكثر من ذلك، فإنه يرى أن هذا التاريخ يمثل استئناف المحادثات بهدف إعادة ربط العلاقات بين الدولتين (وهي العلاقات التي كان فشل شارل الخامس أمام الجزائر سنة 1541 قد برّدها تبريداً بالغاً). وقد سمحت لنا مصادفة سعيدة بأن نعثر على أثر لهذه المفاوضات، وأن نتبين، علاوة على ذلك، بالنظر إلى الملف، أنها كانت هي نفسها قد سبقَتْ بتبادل أول للرسائل سنة 1594. وتقع هذه المفاوضات في حزيران/يونيو 1598، أي قبل أسابيع قليلة من وفاة فيليب الثاني، الذي ربما جهلها. ومع ذلك فهي تُغلق فصل «البربرية» «شمال إفريقيا (من حكمه). ولكن قبل التطرق إلى المفاوضات نفسها، يحسن أن نُذكر بإيجاز بما كان عليه وضع مختلف الأطراف المعنية. فأولاً إسبانيا. هناك ملكٌ مريضٌ وقد شاخ، يأتمن مستشاريه الخاصين الذين يؤلفون ما يُعرف بـ«مجلس الليل (junta de noche)» والذين سجد لهم أثراً في المراسلات المدروسة، وقد جعل من التريث قاعدة للحكم. وحال البلاد لا تسمح، فضلاً عن ذلك، بأي مغامرة. فالحرب مع فرنسا قد انتهت لتوها بصلح فيرفان (2 أيار/مايو 1598)، لكن عواقبها ستظل محسوسة طويلاً. أما الخصم التقليدي الآخر، تركيا، فيبقى مهذباً وإن كان هو نفسه منهكاً. غير أن الغزوات البحرية لأسطولها في المتوسط تبث القلق، وإسبانيا، قليلة الثقة بقواها الخاصة، تفرض القتال. وهذا يدل على مدى الحذر الذي سُدّرس به عروض المُلُك القبائلي. وذلك بالأخص لأن شؤوناً أخرى قائمة في المغرب الأقصى، حيث يعرف التحالف القائم على المصلحة بين فيليب الثاني والمنصور صعوداً وهبوطاً. وسنرى من جهة أخرى الحرص الذي يبديه الإسبان على إبقاء الشريف على علمٍ بمقترحات ملك كوكو.

الحواشي

1. كارلوس رودريغيز خوليا سان-سير، «فيليب الثالث وملك كوكو»، مدريد، 1954، ص 35. ويعالج هذا المؤلف فترة 1601-1608.

بدقة كبيرة.

2. برناردينو دي إسكالانتي، كاتب إسباني، ابن الجنرال غارسيا دي إسكالانتي الذي رافقه في حملاته.

3. توفّي فيليب الثاني في 12 أيلول/سبتمبر 1598.

فماذا عن هذا الأخير، وبخاصة عن مملكته؟ إن «مملكة «كوكو» شأنها شأن عددٍ كبير من الممالك البربرية، لم تكن في الواقع سوى تجمع من القبائل تحت إمرة عائلةٍ قويّة. ولم تكن تضمّ مجموع القبائل، بل قبائل القبائل الساحلية فحسب، واتحاد الزواوة. على أن هؤلاء الأخيرين كانوا حلفاء أكثر منهم رعايا. وكانت قوّة هذه الدولة تتفاوت، على مرّ السنين، بحسب درجة خضوع القبائل، الذي كان موضع تشكيكٍ دائم. ومن هنا نشأت خلافات داخلية مستمرة واستحالة جمع كلّ المسؤولين على سياسةٍ محدّدة. وسيختبر الأتراك والإسبان، الواحد تلو الآخر، مزايا هذا الوضع ومساوئه. ذلك أنهم، وإن وجدوا دائماً فريقاً مستعداً لمؤازرتهم، فإنهم لم يستطيعوا قطّ الاستناد إليه استناداً متيناً.

وكان موقع العائلة «الملكية»، بني القاضي، حرجاً للغاية، لأنها كانت، إن لم تكن غريبة، فعلى الأقل محرومة من كلّ سندٍ قبلي. ولم يكن يستطيع مؤازرتها سوى القبيلة الصغيرة آيت غبري، التي ينحدر منها جدّها. وكانت تدين بقوّتها لهيبة مؤسس السلالة، أحمد بن القاضي، وهو موظّف سام سابق في الدولة الحفصية بتونس، التي كانت القبائل تابعة لها نظرياً، والذي، في فوضى بداية القرن، كان من المهارة بحيث استطاع أن يُشكّل لنفسه نوعاً من مملكة. وإذ تخلّى عن أسباده القدامى، صار له شأنٌ مشترك مع القراصنة الأتراك من آل بربروس لمحاربة الغازي الإسباني. وقد نمت قوّته موازاة لقوّة آل بربروس، بل تفوّقت عليها لحظة. وإذ دُفع إلى جباله، فإنه نجح مع ذلك في الحفاظ على استقلاله من دون أن يتورّط كثيراً مع الإسبان. أما خلفاؤه، الذين مارسوا السياسة الأرجوحية نفسها، فقد بذلوا في ذلك أيضاً قصارى جهدهم، لكن من دون أن تكون لهم مهارته. وقد كان من نتيجة هذا الموقف أن حرمهم من الهيبة التي تلتصق بالمدافعين عن الإسلام. غير أن الظروف المحلية لم تكن تساعد على التهذبة. ذلك أنه، بظاهرة لم تُفسّر بعد تفسيراً جيداً، نرى المغرب الكبير، وبخاصة القبائل البربرية، يقع، خلال

القرن السادس عشر، تحت سيطرة عائلاتٍ مرابطية، تتحدر، بحسب أقوالها، من الساقية الحمراء. وينتهي هؤلاء المرابطون بإزاحة السلطات التقليدية ويُفجّرون أطر القبائل القديمة. ومن المؤكد أن فعلهم زرع بجدية أسس سلطة آخر بني القاضي. وبحسب بوليفة، الذي يبدو أنه أحسن إدراك المشكلة، تكاثرت الثورات في عهد عمّر بن القاضي،

الحواشي

4. هذه هي التسمية الفرنسية الأكثر شيوعاً، لكن نجد أيضاً «مملكة كوك» (Couque) «و» «مملكة غاغو» (Gago) «راجع بتي دي لا كروا». وكانت كوكو قرية من قرى آيت يحيى، رُقيت إلى عاصمة، فأعطت اسمها للمملكة.
5. يبدو أن أحمد بن القاضي كان سيد الجزائر والنتيجة بضع سنين، من 1520 إلى 1525، إذ نجح في طرد خير الدين، بمعونة الحفصيين بتونس.
6. بوليفة س. أ. «جرجرة عبر التاريخ»، الجزائر، 1925. يُروى أن سيدي منصور سَفَّه علناً سي عمّر في سوق آيت جنّاد، الذين كان قد نصّب نفسه حامياً لهم) ص. (398-399

الذي، بحسب الأسطورة، قُتل إن لم يكن بأمر، فعلى الأقل بموافقة ضمنية من المرابط الكبير سيدي منصور. والحال، كما سنرى، أن هذا الشخص نفسه هو الذي يُبأشر سنتي 1594 و 1598 الاتصالات مع إسبانيا. فمن المباح إذن أن ننظر أنه ربما دُفع إلى هذا الطريق بدافع الرغبة في الحصول على وسائل قمع ثورة داخلية بقدر ما دُفع إليه بالخطر التركي التقليدي. ففي الواقع، كان قد استقرّ شيئاً فشيئاً، خلال القرن السادس عشر، نوعٌ من توازن القوى في المنطقة بين الأطراف الأربعة المعنية: كوكو، والأتراك، والإسبان، و«مملكة قبائلية» أخرى، هي مملكة «لبّاس» (Labbès) » هذه المملكة، مملكة لبّاس، أو بالأحرى مملكة بني عباس، الواقعة على الضفة اليمنى من نهر صومام (Sebaou) الذي كانت تجمع سكانيه، كان لها، فيما يبدو، بنية قبلية أمّتن، وهو ما كان يتيح لها أن تتدارك جزئياً مساوئ موقعها الجغرافي الأقلّ ملائمة. وكان من شأن العائلة «الملكية» «لبني عباس، ذات الأصل المرابطي، أن تلقى صعوباتٍ أقلّ. وقد سادت هذه العائلة المنطقة حتى أيامنا هذه باستمرارها في فرع المقراني. لكن «سلاطين لبّاس»، كما كانوا يُسمّون، بفعل خلافات الصفوف (cof)، وجدوا أنفسهم، منذ البداية، وبشكلٍ طبيعيٍّ تماماً، الأعداء الوراثنين لملوك كوكو. ومن هنا، طوال القرن السادس عشر، نشأ تبادلٌ متقاطعٌ للأحلاف: الأتراك/كوكو ضدّ الإسبان/لبّاس، والإسبان/كوكو ضدّ الأتراك/لبّاس. والحال أنه، في سنة 1598، بدا أن هذا التقليد الراسخ مُقْبِلٌ على الانتهاء، إذ اصطدم التركيُّ بنوعٍ من جبهةٍ مشتركة للقبائل.

فمنذ سنة 1590، كانت حملة خُضر باشا ضدّ سلطان لبّاس قد جرت من دون مشاركة ملك كوكو. وقد أتاح سند المرابطين للسلطان أن يتفاوض على هدنة. وهي هدنة نُقِضت من جهة أخرى سنة 1595 دون أن يتحرّك كوكو. بل أكثر من ذلك، يبدو أن كوكو ولبّاس، خلال السنوات اللاحقة، آزرا جميع ثورات الجزائر العاصمة التي كانت تُضعف السلطة التركية. ذلك أن موقع الطرف الأخير من الأطراف كان يزداد سوءاً فعلاً. فإنّ تنصيب البوّات (Pachas) ذوي الولاية الثلاثية بالجزائر، بدلاً من البايالربايات (Beylerbey)، كان قد أغرق حكومة الإيالة في وضع فوضويٍّ لم تكن تستطيع الخروج منه. لكن منذ سنة 1592، تفاقت هذه الفوضى، القائمة على معارضة الأوجاق (Odjaq) للبوّات، والمُعقّدة بمكائد الرياس (Reis)، بفعل الكراهية المتبادلة بين البوّات المتعاقبين بعضهم تجاه بعض. ففي سنة 1592، خُضر باشا، الذي هاجمه الأوجاق بعنف، يُستبدل به شعبان باشا. وهذا الأخير، إذ رضخ للأوجاق، أعاد سلفه إلى القسطنطينية مصحوباً بسفارةٍ مكلفةٍ بأن تقدّمه للمحاكمة أمام السلطان. وإذا لم يكن لهذه القضية ما بعدها، فإن خُضر لم يكن لينسى هذا الصنيع السيئ!

الحواشي

7. بحسب فرو (Feraud)، «المقرانيون...» في نشرة الجمعية الأثرية لقسطنطينة، 1871-72، ص 196 وما بعدها، كان الجدّ سي عبد الرحمن مرابطاً يدّعي حتى أنه من أصلٍ شريفي. وبعد أن أقام في بلاط ملوك كوكو، يُقال إنه أخرج بني عباس من سيطرتهم. وأنّ ابنه سي أحمد بن عبد الرحمن شيدّ قلعة (la Kalaa) التي صارت عاصمة المملكة الجديدة.

وإذ بلغ شعبان نهاية سنواته الثلاث، عهد بالنيابة إلى قريبه مصطفى. لكن خُضر، في غضون ذلك، وبفضل عطايا ورّعت توزيعاً حسناً، كان قد جعل نفسه يُعيّن للمرّة الثانية باشا على الجزائر. وما إن عاد حتى صبّ على مصطفى الكراهية التي كان يُكنّها لشعبان، إذ فرض عليه غرامة قدرها 15000 إيكو وأغرقه بالإهانات. ونجح مصطفى في العودة إلى القسطنطينية حيث أتاح له الظروف، منذ سنة 1596، أن يحصل هو أيضاً للمرّة الثانية على باشوية الجزائر. وكان أول

همه أن يفرض بدوره على خضر غرامة قدرها 30000 إيكو هذه المرة، وأن يضع نوعاً من الحجز على أملاكه. فاضطّر المعني إلى الفرار خرباً.

وكانت صراعات النفوذ هذه تترجم بمواجهة عشائر متنافسة كان بعضها يسلب بعضاً. بل تشهد ثورة لسكان المدينة من المغاربة (Maures) سنة 1596 ، أسندها الكراغلة (Kouloughli) وكان المرتدون (Renégats) من جهة أخرى ساخطين؛ وتطلّ مطالبهم الدقيقة مجهولة لدينا، لكن يبدو أن الأتراك من أصل تركي كانوا يجهدون لإقصائهم شيئاً فشيئاً عن المناصب المهمة التي كانوا يشغلونها في عهد البايبربايات. وأخيراً، صارت السلطة التركية موضع جدل متزايد في البادية (Bled) وخرج القبائل في النهاية منتصرين من نزاعهم مع البوات، وقاموا بغارات على النتيجة. وقطعوا كلّ المواصلات البرية مع الناحية القسنطينية، ولا شك أن هذا هو السبب الذي من أجله بنى مصطفى حصن سور الغزلان (أومال (Aumale - ، كي يهيئ لنفسه مساراً أكثر اتجاهاً نحو الجنوب.

ومن الممكن أن يكون مشهد هذا الانحطاط قد دفع عمر بن القاضي إلى أن يضرب عصفورين بحجر واحد، إذ سعى إلى تثبيت سلطته على القبائل مع طرد التركي في الآن نفسه.

ذلك أن كوكو، في هذه المفاوضات، هو الطرف الطالب.

إن ملف هذه القضية نحيف جداً، وهو يتألف من ثلاثة عناصر:

1/ ترجمة فضفاضة نوعاً ما لمختلف الرسائل المرسلة إلى ملك إسبانيا، سواء من ملك كوكو أو من شخصيات أخرى معنية بالقضية، مؤرخة في 16 حزيران/يونيو 1598

2/ دراسة لهذه الرسائل وللمقترحات التي تتضمنها، أعدها رئيس مجلس الرُتب (Conseil des Ordres) ، دون مارتين دي كوردوبا، مؤرخة في 17 حزيران/يونيو.

3/ ملخص لمختلف مقترحات ملك كوكو، يقابله القرار المتخذ، من دون تاريخ.

الحواشي

8. يُقال إن القبائل خيموا حتى أمام باب عزّون بالجزائر. راجع غرامون (دي «) تاريخ الجزائر في عهد السيطرة التركية»، باريس، 1887 ، ص 140 ، الذي لا يقدم للأسف مرجعاً.

9. أرشيف ما وراء البحار، إكس (Aix) ، 3 MI 3 ويتعلّق الأمر بميكرو فيلم لأرشيفات إسبانية تهم شمال إفريقيا، أبلغتنا به مشكورة الأنسة دي لا فيرون، التي شكرها هنا. والوثائق الثلاث المدروسة محفوظة بسيمانكاس (Simancas) تحت الرمز Estado, legajo 182 وللأنسة دي لا فيرون أيضاً تدين بالوثائق المتعلقة بسنتي 1609-1610 المستخدمة فيما بعد.

لا نعرف كيف وصل حامل مراسلات كوكو إلى إسبانيا، ولا أين نزل. في المقابل نعرف هويته، إذ تكرر تحديدها مراراً. بل لدينا نسبه. إنه ابن أخ الملك، أبو الملك (Aboul Malik) وهذا ابن الأخ هو أيضاً موضع ثقته (مؤتمنه. (وُلِحَّ عمر بن القاضي مرات عدّة على ضرورة معاملته بإكرام.

لكن قدومه لم يكن مع ذلك رسمياً. فقد كان رسولاً سرياً، لأن الأتراك كانوا على علم بنوايا الملك، بحسب أقوال هذا الأخير نفسه. وسيكون من أول ما يعتني به الإسبان أن يزودوا المعني بثوب لائق يحل محلّ تلك التي كان يرتديها» ليأتي أكثر تخفياً ولنلا يُعرف في الطريق. (para venir mas disimulado y por no ser conocido en el camino) » لقد حمل إلى الإسبان مراسلات متعددة.

أولاً رسالة من ملك كوكو إلى ملك إسبانيا، تشكّل أساسها. ثم رسالة من الملك إلى الأمير (Principe) «)، وهو على الأرجح فيليب الثالث المستقبلي، تكرر جوهر الرسالة السابقة. وكانت هذه الرسالة تحمل ملحقاً (codicile) موقعاً، إن لم يكن مكتوباً، بيد ابنة الملك، عائشة (Aicha) ، تُعدّد فيه الهدايا التي تودّ تلقّيها.

ورسالة ثالثة، عجيبة نوعاً ما في نظرنا، كانت موجهة إلى العلماء والكتبة ورجال الدين في إسبانيا. وكانت، في صيغة منقولة، نداء إلى العلماء (Ouléma) ، وهو تقليد كلاسيكي في بلاد الإسلام.

وإلى هذه الرسائل الثلاث، يُضاف خطاب جماعيّ أو يُزعم أنه كذلك (من جميع الجنود والمستشارين والقوّاد والقضاة والحكّام والمرابطين، ومن جميع أعيان المملكة، يتضامنون فيه مع المسعى الملكي.

وأخيراً، كانت ثمة رسالة من مرتدي الجزائر (Renégats d'Alger) يعرضون فيها الاستيلاء على المدينة بموازرة كوكو وإسبانيا.

ولسنا نعرف، كما قلنا، الأصول، بل فقط نسخة «العلاقة (relacion) «أي بيان محتواها. وهذه النسخة، بقدر ما يمكن الحكم، تبدو ترجمة فضفاضة جداً، محرّرة بصيغة الغائب: «يقول ملك كوكو»... إلخ. لكنها مفصّلة نوعاً ما وتبدو أمينة من حيث الجوهر.

يبدأ ملك كوكو بتقديم نفسه: يكتب عَمَر، ابن عَمَر، ابن أحمد (حامد)، ابن محمد (مامد)، ابن أحمد (حامد)، ابن القاضي، ملك كوكو (Scribe Homar, Hizo de Homar, Hizo de Hamed, Hizo de Mamed, Hizo de Cuco). (de Hamed, Hizo del Cadi, rey de Cuco). ابن القاضي.

الحواشي

10. إن تعاقب ملوك كوكو موضع جدل كبير. وبحسب ما يمكننا معرفته، فإنه لا يطابق نسب عَمَر. فيحسب مدونة الجَنَابِي (Djennâbi)، التي نشرها فانيان (Fagnan)، «مقتطفات غير منشورة عن المغرب الكبير»، الجزائر، 1924، ص 333، كان التعاقب حتى سنة 1583 كما يلي: أحمد بن القاضي (حكم 3 سنوات)؛ محمد، أخوه (حكم 30 سنة)؛ أحمد بن أحمد، ابن أحمد، ابن أخ محمد (حكم 10 سنوات وتوفي سنة 1583) تاركاً العرش لمحمد بن أحمد، ابنه. فيكون عَمَر قد خلف محمد بن أحمد هذا، إما مباشرة أو بعد قريب غير محدد الهوية. لكن بوليفة، م. س.، يقترح حلاً آخر: أحمد بن القاضي (قُتل سنة 1527)، ويخلفه أخوه سي الحسين (Si El Haoussin) الذي يُقال إن حكمه كان طويلاً جداً. ومن هناك يقفز بوليفة إلى عَمَر، بعد أن ذكر أحمد، ابن سي الحسين، لكن من دون أن يستطيع تحديد ما إذا كان قد حكم فعلاً.

ثم يقدم مبعوثه «أبو الملك، ابن محمد (مامت)، ابن أحمد (حامت)، ابن القاضي (Aboumelik, hizo de Mamet, hizo de Hamet, hizo del Cadi)»، وهو ابن أخيه. وثمة أمرٌ يلفت النظر. إن الكاتب الذي ينسج «العلاقة» يقفز ثلاثة أجيال، إذ لولا ذلك لكان هذا «ابن الأخ» في الحقيقة عمّ الجد الأكبر. ويُلحَّ عَمَر على أن أبا الملك هو مستشاره الحميم، المُطلع على جميع نواياه. وبعد أن أكد (وهي عبارة مجاملة شكلية) إرادته في أن يضع نفسه وذويه في خدمة فيليب الثاني، يوضح أن الأتراك لا حقّ لهم على مملكته، وأنه غير خاضع لأيّ جزية، وأنه يرغب في محاربتهم. لكنه لا يعتزم القيام بذلك إلا بمعونة إسبانيا. وإذا اقترح عليه ملك فاس هجوماً مشتركاً على تلمسان، فقد علّق العملية على موافقة مدرّيد. وهذا التوضيح مهم، لأن إسبانيا تُقيم من جهتها علاقات متواصلة مع المنصور. وهو يؤكّد ما هو معروف، أي أن هذا الأخير كان يعتبر التحالف الإسباني شراً لا بدّ منه، لكنه كان يمارس، كلما كان ذلك ممكناً، سياسةً مستقلة. ويتابع عَمَر قائلاً إن الظروف مواتية لهجوم. فالأتراك يتقاتلون ويسلب بعضهم بعضاً، والفوضى تسود مجلسهم — وهو ما يؤكّد ما كنّا نعرفه — ومرتدّو الجزائر، الذين يُقيم معهم علاقات سرّية، يحرضونه على مهاجمة المدينة، رابطين مصيرهم بمصيره. وهذا التأكيد الأخير يستحقّ النظر. فأولاً من غير المرجّح أن يكون مجموع المرتدّين، الذين كانوا يشكلون آنذاك فئة غير ضئيلة من الطبقة الحاكمة، قد اصطقوا هكذا. ولا شك أن الأمر لا يتعلّق إلا بأقلية. لكن الأمر دالّ بما فيه الكفاية على ضيق ما. ومن المؤكّد أن العصر الزاهر للمرتدّين كان عصر البايبربايات. أما مع البوات فسيتضاءل دورهم، وسيحاطون بالريبة شيئاً فشيئاً، حتى لا يعودوا يشكلون إلا عنصراً فلكورياً. ثم يقدم عَمَر لمحة عن قواته: فهو يملك 100000 رجل، أما «المعارضون (contrarios)» «فليسوا سوى 9000، يستطيع القضاء عليهم بسرعة. فمن هم هؤلاء؟ المعارضة؟ إن العدد يتطابق نوعاً ما مع تعداد الأوجاق. أم هم متمردون قبائليون؟ من غير المرجّح أن يكون عَمَر قد شعر بالحاجة إلى ذكرهم في هذه المفاوضات. ويتابع عَمَر قائلاً إن إسبانيا ستجني أرباحاً كبيرة من هذه المعونة. فأولاً تحالف كوكو. ثم مزايا تجارية: إذ سيُسمح للتجار المسيحيين بالتجارة في المكان وستُكفّل سلامتهم» كما يفعل بين فرنسا وإنجلترا (como se haze de Francia con Inglaterra).

والتأكيد الثالث يُحجّر قليلاً، إلا أن يكون موجوداً لتعزيز الرأي الحسن الذي قد يحمله الإسبان عن

الحواشي

10. تنتمي (العين نفسه من عدم اليقين فيما يخصّ خلفاء عَمَر) قُتل سنة 1618 بحسب روبان (Robin)، «ملاحظة عن التنظيم العسكري والإداري للأتراك في القبائل الكبرى»، في المجلة الإفريقية، السابع عشر، ص 132 وما بعدها، خلف عَمَر أخوه سي أحمد بو خطوش (Si Ahmed bou Khetouch)، الذي أطيح به نحو سنة 1632 على يد ابن أخيه، ابن عَمَر، اللاجئ في تونس، ومن هنا اسمه أحمد التونسي (Ahmed et Tounsi). وكان هذا الأخير آخر «ملك» لكوكو. وبحسب بوليفة، طُرد سي أحمد بو خطوش سنة 1624 على يد ابنه أول لعَمَر، لاجئ بالجزائر، وذلك بسند الأتراك؛ وأن هذا الأخير طُرد، سنة 1633، على يد أخيه التونسي.

كوكو. ويُعلن عَمَر أنه يملك تحت سلطته زهاء 150 موضعاً (lugares)، وأن المواضع التي هي «مثل مستغانم وتلمسان (como Mostagan y Tremcen) «ستكون» أتباعاً لجلالتكم، مطيعة لخدمتها (vassalos de V.M, obedientes a su servicio)»

والحال أنه كان من المؤكد أن أيّاً من القرى القبلانية التي كان يحكمها عمّر لم تكن تتخذ مظهر المواضع المعنوية. لكننا سنرى أيّ تأويل سيُعطيه الإسبان لهذا العرض.

ثم ينتقل ملك كوكو إلى الترتيبات العملية: فليرسل إليه فيليب الثاني رسولاً مع 50 سفينة شراعية حربية (galères) تنزل في أحد موانئه. ولا يُمنّي عمّر نفسه كثيراً بسهولة العملية، ومن هنا العدد المرتفع من السفن المقترح. فهذا الإنزال سيتم في الواقع «بحضرة العدو والصديق» (en presencia del enemigo y amigo) «ولا شك أن هذا هو سبب المقترح المُقدّم فيما بعد»: إن أردت جلالكم أن تبني على أرضه) هو، عمّر (قلعة مثل وهران أو طبرقة، فلتختَر جلالكم المكان، وهو سيبنيها (Que si V.M. quisiere fabricar en su terra alguna fuerça como Oran o Tabarca, escogiendo V.M el lugar, el la fabricara).

وهذا المقترح، الموضوع وسط الاعتبارات العملية، يبدو، في ذهن ملك كوكو الماكر نوعاً ما، مجرد وسيلة مؤقتة. فلا حديث عن منح سيادته لإسبانيا. لكن العرض غامض بما يكفي لإغراء الإسبان من دون أن يلزم نفسه بشيء. وعلى كل حال، يضيف عمّر، فإن ابن أخي حاضر لضبط آخر التفاصيل وتوضيح النقاط الغامضة.

وفي الانتظار، فليرسل إليه ملك إسبانيا باروداً ورصاصاً وثياباً ليوزعها على العرب (Alarves) كي ينضموا إليه. وهذا اللفظ «alarves» غامض بعض الشيء. فمن يقصد عمّر بهذه المفردة؟ أم قبائل المتيجة؟ أم القبائل شبه الرحل في الهضاب العليا؟ في هذه الحالة يكون القبائلي قد تصوّر انتفاضة عامة. أو ليس الأمر، ببساطة أكثر، خطأ في النسخ، إذ ينبغي أن تُقرأ «para dar a los alarves» لإعطائها للعرب «para dar a los alavès» (، أي لأهل لباس؟ ذلك أن سند سلطان لباس، أو على الأقل حياده الودود، كان في الواقع ضرورياً لنجاح المشروع. وسيذكر هذا الأمر فيما بعد على كل حال. ويختتم عمّر بأن يُوصي مجدداً بأن يُعامل مبعوثه أبو الملك بكل ما يليق بمكانته من تكريم. وتنتهي الترجمة بما لا بدّ أنه كان نوعاً من حاشية ختامية (post scriptum)، ذات دلالة بالغة: إن الأتراك على علم بنواياه ويرصدون ردّ فعل إسبانيا. والأمر كذلك بالنسبة إلى ملك فاس الذي رفض عروضه. وسيكون موضع سخريتهم إن لم تُفصّل المفاوضات إلى شيء. فليرسل إذن فيليب الثاني، على وجه الاستعجال، رسولاً ونجدة، أو على الأقل جواباً.

الرسالة التالية موجّهة» إلى الأمير (al Principe) «و»العلاقة (relacion) «الخاصة بها موجزة جداً: فهي لا تذكر إلا رغبة عمّر في طرد الأتراك و

الحواشي

«... 11. يقول إن لديه تحت سلطته نحو 150 موضعاً، وإن المواضع التي هي مثل مستغانم وتلمسان ستكون أتباعاً لجلالكم، مطبوعة لخدمتها» («...dize que tiene debajo de su mando cossa de 150 lugares y que los lugares son como Mostagan y Tremecen seran vassalos de V.M., obedientes a su servicio»).

استقبال السفن والبارود والرصاص والثياب، لإعطائها لـ«العرب (Alarves)»، لأنه لا يوجد لديه منها، ولأن الأتراك وحدهم يملكونها.

أما العبارة التي أثبتتها عائشة، ابنة عمّر، على رسالة أبيها نفسها، فتتمثل في «أطيب التحيات لسموّه (muchas encomiendas a su Alteza)، وبخاصة أنها تلتمس إرسال سلسلة من ذهب، وعقدين من اللؤلؤ، وأربعة أقراطٍ للآذن، علماً بأنها — كما تضيف — ليست في حاجة إليها، بل فقط لتتذكر المهدي.

لقد قلنا كلمة عن المعنى الذي ينبغي إعطاؤه للرسالة الثالثة، الموجّهة إلى علماء إسبانيا، التي كان يمكن، لولا ذلك، بحسب المنظور الملكي في ذلك الزمن، أن تبدو في غير محلّها تماماً. وهي لا تأتي بجديد.

في المقابل، فإن الخطاب الموجّه إلى فيليب الثاني من أعيان كوكو يذهب أبعد من مقترحات الملك، إذ يُحدّد موقفهم بشأن الجزائر: فهم يعرضون أخذ هذه المدينة التي سُسِّلَ إلى الإسبان...»: ويعرضون أن تكون أرضاً لجلالكم، وأنه يمكنكم أن تكون لكم فيها قلاع (Y ofrecen que sera la terra de V.M y que podra tener fuerças en ella). ..» بل يلتزمون حتى بدفع جزية لإسبانيا.

والمناورة هي ذاتها دائماً: إغراء الإسباني مع التحفظ بمنفذٍ للخروج. فهؤلاء الأعيان يمكن في الواقع التصلّ منهم بسهولة.

والخطاب الموجّه من المرتدين يزيد من الالتباس: «إن مرتديّ الجزائر يكتبون إلى جلالكم ليخبروها بسوء المعاملة التي يلقونها من الأتراك، وكم يساعدهم ويؤشّر عليهم ملك كوكو. وهم عازمون على معاونته في فتح هذه المدينة وطرد الأتراك؛ ولأجل ذلك أشاروا عليه بالاستناد إلى جلالكم التي سُسِّلَ إليه النجدة المطلوبة، وبفضلهم تتم القضية. وستبقى هذه الأرض (الجزائر لجلالكم إن رغبت في الإبقاء على قواتٍ فيها)...

والحق أن المرتدين لم تكن لهم أيّ صفةٍ تخولهم الالتزام باسم كوكو.

وهذا الملف، المتضمّن للأصول والترجمات، سلّم، لا شك بسبب كفاءته، إلى المركيز دون مارتين دي كوردوبا،

الحواشي

12. يتعلّق الأمر بدون مارتين دي كوردوبا، كونت كورتيس (comte de Cortès)، آخر أبناء كونت ألكاوديتي (Comte d'Alcaudete)، ففتح تلمسان. وكان قد خاض أولى تجاربه الحربية تحت إمرة أبيه، الذي كان يقدّره كثيراً، ورافقه أثناء حملة مستغانم المشؤومة في آب/أغسطس 1558. وإذ وقع أسيراً، بقي معتقلاً بالجزائر حتى سنة 1561، تاريخ اقتدائه. وإذ عاد إلى وهران التي كان يقودها آنذاك أخوه الأكبر، دون ألونسو، شارك مشاركة باهرة في الدفاع عن المدينة أثناء حصار 1563، ويُقال إن سرفانتس (Cervantes)، الذي كان يحميه، فكّر فيه عند كتابة «الإسباني الباسل» (le Vaillant Espagnol). «وكان قد خَلَف أخاه في كانون الأول/ديسمبر 1575 قائداً عاماً وحاكماً لوهران، وهو المنصب الذي شغله حتى آب/أغسطس 1585. وكان دون مارتين بالتأكيد أحد أفضل المختصّين بشؤون المغرب الكبير، وهو ما يفسّر اللجوء إلى كفاءته في حين أن وظائفه كرئيس لمجلس الرُتب لم تكن تخصّه بشكل خاصّ بالنظر في هذه القضية. ويبدو من جهة أخرى أنه اغتنم الفرصة ليقترح خطة حملته الخاصة، إذ نسبها إلى ملك كوكو.

رئيس مجلس الرُتب، من قَبْل دون كريستوبال دي مورا، المستشار الحميم لفيليب الثاني، مع الرجاء بدراسته وإبداء رأيه فيه. والنتيجة هي القطعة الثانية في حوزتنا، وهي قطعة ذات أسلوبٍ مُسهّب نوعاً ما، محشّوة بالجميل الاعتراضية، لكنها قاطعة في استنتاجاتها.

سنلخّص جوهرها. فأولاً يُبرز دون مارتين المصلحة البيّنة بالنسبة إلى إسبانيا في أن تُرى الأتراك مطرودين من البربرية. فلن يعود سكان السواحل يُغار عليهم أو يُساقون إلى العبودية؛ وستُصبح الملاحة في المتوسط، وفي المضيق وحتى رأس سان فيسنتي (Cap Saint Vincent)، مأمونة؛ ولن تعود جزر المحيط وسفن الهند تُهاجم، وستربح التجارة من ذلك. وإذ يلخّص مقترحات ملك كوكو، يذكر معونة متوقّعة من سلطان لبّاس لا تتحدّث عنها الترجمة، إلا أن نقراً، كما

اقترحنا، «Alaves» بدلاً من «Alarves». ومن المرجّح، يقول، أن تكون نفقات الحملة على عاتق إسبانيا. وبفضل هذه المعونة، يمكن للمشروع أن ينجح. والمعلومات المُقدّمة تبدو دقيقة، ومن المؤكّد أن مثل هذه الفرصة لم تُتَح منذ سنوات، إذ لم يكن حزب الأتراك قط بهذا الانخفاض، للأسباب المذكورة، ولأسبابٍ أخرى يستطيع هو، دون مارتين، أن يبيّنها لو طُلب منه ذلك.

إن هدف ملك كوكو هو استعادة الجزائر والاستيلاء على مملكته، التي يطالب بها على أنها له. وخطّته هي التالية: إذ يتظاهر بمهاجمة الجزائر، سيهرع جميع الأتراك للدفاع عنها، مُخلّين حاميات الداخل. وبمعونة الشريف وسلطان لبّاس، سيكون من السهل حينئذٍ تنظيم انتفاضة عامة وحصار الأتراك في الجزائر، حيث، وقد تخلّى عنهم الجميع، سينتهون إلى الاستسلام، قبل أن تستطيع القسطنطينية مساعدتهم، لا سيما وأن الأسطول الإسباني سيقف في وجه ذلك.

والحال أنه لم يُقَل شيء من هذا القبيل في رسائل كوكو. وسنرى من جهة أخرى أن دون مارتين «يؤوّل» بسهولة نوعاً ما عروض القبائل.

والخطاب الموجّه من المرتدّين يستوقف هو أيضاً انتباه المُحرّر، إذ يقول: «أعلم أن المرتدّين وسكان المدينة هم ضِعفا عدد الأتراك... وأن الفريقين معاً يريدان تغيير السيّد، أولئك للعودة إلى عاداتهم القديمة، وهؤلاء كي يجدوا أنفسهم أكثر حرّية وأفضل معاملة.»

ومع ذلك، فقبل الانخراط في قضية بهذه الأهمية، ينبغي اتّخاذ عدّة احتياطات. فأولاً، يجدر دراسة ملفّ سابقة 1594. ويقدم دون مارتين التفاصيل التالية: راهبٌ

الحواشي

13. دون كريستوبال دي مورا، أو بالأحرى دي مورا (Mourra) (1538-1613)، كان نبيلاً برتغالياً في خدمة إسبانيا. وإذ كُلف في الأصل بالشؤون البرتغالية، صار مستشاراً حميماً لفيليب الثاني في شؤون الحرب والشؤون الخاصة، ومُنح لقب مركز كاستيل رودريغو (Castel Rodrigo). وعند وفاة فيليب الثاني أبعد عن البلاط وعيّن نائباً للملك على البرتغال.

أسيراً، من آل نارفايس (Narvaez)، جاء آنذاك بمقترحاتٍ ماثلة. وقد دُرست هذه المقترحات، فعاد إلى البربرية حاملاً الأجوبة. ولسوء الحظ، كان مقدّراً له أن يهلك في البحر، فألّت القضية إلى لا شيء.

ثم، من الضروري أن يكون سند الشريف متوافراً، وهو ما لا يبدو أنه موضع شك، إذ إنه — بحسب كوكو — كان قد بادر إلى تحالفٍ ضدّ الأتراك.

وأخيراً، يجب التأكّد من صدق تأكيدات المرتدّين.

ولمعرفة ذلك، ولإطلاع الشريف أيضاً، يقترح دون مارتين استخدام عميله، التاجر اليهودي بوهران، كانسينو (Cansino)، وهو رجلٌ أمينٌ وذكيٌّ جداً، يمكن استدعاؤه فوراً لإعطائه التعليمات اللازمة لإدارة المفاوضات مع الشريف، فيما يتوجّه صهراً، أكابورتاس (Acaportas)، إلى الجزائر بحجّة التجارة ليُجري اتصالاً مع المرتدّين.

وفي تلك الأثناء، يمكن الردّ بلطفٍ على ملك كوكو، وإرسال شخصٍ كفؤٍ إلى عين المكان يتحقّق من صدق أقوال الملك، وبخاصّةٍ ما إذا كان يحظى فعلاً بسند جميع مسؤولي مملكته، وما إذا كان سلطان لبّاس ينوي حقاً معاونته، وبأيّ وسائل.

غير أنه، لكي لا يبدو الأمر وكأنه رفض لطلب كوكو، ولإعطائه إرضاءً جزئياً، يمكن، بمناسبة جولة بحرية على سواحل البربرية تقوم بها 15 إلى 20 سفينة حربية، أن ترسو في أزفون (Azzeffoun)، في أراضي كوكو، قرب بجاية، وأن تنزل الشخص المعني، محملاً بهدايا متواضعة للملك وابنته، وهو ما سيجعلهما على كل حال مدينين لنا. ثم تعود السفن إلى ساحل إسبانيا، ومنه تعود لاستقدام الرسول في الوقت المناسب.

وإن اتفق على هذه الطريقة في العمل، يتابع دون مارتين، فيجدر إرسال الفارس المغربي) أبو الملك (فوراً إلى وهران لتحديد تاريخ هذه الرحلة وتأمين سلامة ميناء أزفون. وعلى ضوء تقرير المبعوث، يُنظر فيما إذا كان يجدر أم لا تسليم البارود والرصاص والثياب التي يطلبها الملك. والوقت لا يستعجل، إذ إن الملك لن يحسم أمره قبل أن يعرف جواب مدريد.

ثم يصل دون مارتين إلى ذلك المقترح اللغزي لملك كوكو، أي أن يضع تحت سيادة إسبانيا مدنه التي هي «مثل مستغانم أو تلمسان». وهذا الذي نعتبره مجرد عبارة مجاملة شكلية، نظراً لاستحالة الأمر مادياً، يؤوّل بطريقة مذهلة. إذ يبدو أن دون مارتين يظن أنه بعد نجاح القضية، سيتنازل ملك كوكو لإسبانيا، من بين المواضع التي كانت في حوزته، عن تلك التي كانت مثل تلمسان أو مستغانم.

الحواشي

14. النصّ الدقيق هو... «أسيراً ف. من نارفاييس. (un f° cautivo de Narvaez...)» «ونحن مغزون بحلّ الاختصار «f°» بـ «franciso» أو «franciscano»، أي فرنسيسكاني) راهب فرنسيسكاني. (ومن الجدير بالملاحظة أن جميع المبعوثين المرسلين إلى كوكو كانوا فرنسيسكان، مثل الأب ماثيو (R.P. Mathieu) واسمه الحقيقي ماثيو دي أغير (Matteo de Aguirre) - الذي قُتل سنة 1603.

15. كان آل كانسينو يشكلون نوعاً من سلالة في خدمة إسبانيا كمرجمين وعملاء استخبارات.

ومن جهة أخرى، يتابع، إن رغبت إسبانيا في مواضع جديدة، فلن يكون عليها إلا أن تُعين المواقع، وكوكو يبينها. وهنا أيضاً تأويلٌ مختلف، لكنه هذه المرة بلا عذر، إذ إن مقترح كوكو كان، لمرةٍ، دقيقاً ولا يتناول سوى عرضٍ واحد) انظر أعلاه). ويدع دون مارتين، بعد قليل من جهة أخرى، المشاريع العملاقة التي يُداعبها تتسرّب. فيقول: هذا هو أفضل سبيلٍ لكي تصبح جالتمكم سيّدة على الكلّ) المغرب الكبير (وتلجم الأتراك الذين لن يجرؤوا بعد ذلك على عبور المضيق ونهب سواحل المملكة.

وإذ يعود إلى الواقع، ينصح دون مارتين بعد ذلك بأن يُعامل ابن أخ ملك كوكو، حامل هذه المقترحات، معاملةً حسنة، وأن يُكسى بحسب رغبته، وأن يستقبله أحد أعضاء المجلس لمناقشة القضية، ويختم بأن يُبرز الفرصة الاستثنائية المتاحة لأخذ الجزائر بنفقة زهيدة.

فماذا نقول عن هذا التقرير؟ أولاً أنه لا يعكس بدقة ما نعرفه عن مقترحات كوكو. أهذا نتيجة تأويلٍ شخصيٍّ من دون مارتين دي كوردوبا، الذي شغفته القضية؟ أم هو على العكس نتيجة أننا لا نملك سوى صياغةٍ سيّئة للوثيقة الأولى، التي ليست —نذكر بذلك — سوى نسخة «العلاقة (relation)» «المُعّدة على الأصول»؟

والوثيقة الثالثة تحسم هذه المعضلة. فهذه الأخيرة تُشكّل في الواقع الحالة الأخيرة للمفاوضات، إذ إنها تحمل، في جزئها الأيمن، ملخص مقترحات كوكو، وفي جزئها الأيسر، القرار المُتخذ. وهذه الوثيقة، للأسف، غير مؤرخة وغير موقعة، لكن يمكن الظن أنها تعكس بأمانة جوهر القضية وموقف المسؤولين، وإن لم تكن بخط أيديهم. وملخص مقترحات كوكو مكتوب بطريقة سريعة جداً، كنوع من مذكّرة تذكيرية حُررت على عجل. أما الأجوبة فبخط أكثر تأنيلاً.

وإليك جوهر ما اقتطف من مقترحات كوكو:

- 1/ إرسال ابن الأخ أبو الملك،
- 2/ الرغبة في تحالف ضدّ التركي، العدو المشترك،
- 3/ كوكو قويٌّ بـ 100000 رجل ومتفوّق على العدو،
- 4/ الرغبة في أن ترسو 50 سفينة حربية في أحد موانئه وأن تُسّنده إسبانيا.
- 5/ كلّ أراضي، وما كان في حوزته، ستكون تحت إمرة جلالته، التي سيّني لها قلعةً مثل وهران، إن رغبت في ذلك، في الموقع المختار.

- 6/ تحت سيطرته 150 تجمعاً عمرانياً بأهمية مستغانم. وستكون تابعة لإسبانيا التي ستستطيع التجارة فيها بحرية.
- 7/ الثقة بآبن أخيه،

الحواشي

16. هذه لا شكّ مسودة مجلس الحرب. (Conseil de la guerre).

8/ إرسال البارود والرصاص والثياب لاستمالة العرب.

9/ أن يُعطى جوابٌ بسرعة كي لا يفقد ماء وجهه.

وفي هذا النص، الأكثر مطابقة لما نعرفه عن مقترحات كوكو، لا يُذكر تدخلٌ من سلطان لبّاس. ولا يُتصوّر التنازل عن مواضع. إذ تُؤخذ عبارة «*como Mostagan*» مثل مستغانم («بمعناها المقارن» يقول إن لديه تحت سلطته 150 موضعاً مثل مستغانم *150 lugares dice que tiene debaxo de su mando*) «... (como Mostagan...)». وأخيراً، لا حديث إلا عن قلعةٍ واحدةٍ تُبنى عند الاقتضاء على أراضي ملك كوكو. فما هي الآن القرارات التي اتخذتها الحكومة الإسبانية؟ يُعلمنا بها الجزء الأيسر من الوثيقة. ونحن ننقلها بحرفيتها (in extenso):

«ليأت هذا المغربي إلى هنا ويَرّ جلّالته أو سموّه.

لِيُكسَّ ويُرسَل) مَصروفاً (بإرضاءٍ و)اختصاراً غير محلول).

لِيُرسَل إلى ملك كوكو شخصٌ يكون كانسينو أو أحد أصهاره، ويُرسَل في طلبه.

لِيُكتب إلى الشريف بشأن هذا كي يساعد.

ليبقى، فعلاً، على المحادثة قائمةً مع إعطاء الإرضاء المناسب.»

ليأت هذا المغربي) أبو الملك (إلى هنا ويَرّ جلّالته أو سموّه.

لِيُكسَّ ويُرسَل راضياً و؟

لِيُرسَل إلى ملك كوكو شخصٌ يكون كانسينو أو صِهره، وهو ما يجدر استدعاؤه.

لِيُكتب إلى الشريف) في المغرب الأقصى (بشأن هذا كي يساعد في القضية.

لِيُتَبَّقَ المفاوضات قائمةً مع إعطاء الإرضاءات المناسبة.

وبالإجمال، إنه جوابٌ انتظار. وقد كان من الصعب على كلّ حال على الملك المُحتضر، أو على مستشاريه، تصوّر إجراءٍ فوري. وعلى أيّ حال، فإن وفاة فيليب الثاني أعادت، فيما يبدو، كلّ شيءٍ موضع تساؤل.

الحواشي

17. ومع ذلك، تبقى مصادفةٌ مُقلقة، وهي هذا الهجوم على الجزائر من قِبَل القبائل سنة 1598 الذي يذكره دي غرامون) ص. (140 أو لم

يكن نتيجة مفاوضات حزيران/يونيو 1598 ؟ ينبغي طبعاً معرفة تاريخ الحدث بدقة، لكن من المباح الظن أن المحادثات كانت قد قطعت شوطاً كافياً بحيث انتقل كوكو إلى الهجوم أملاً موازنةً إسبانية أعوزته.

لكن المفاوضات كان مقدراً لها أن تتواصل، دائماً بوساطة أبي الملك. ينشر خوليا سان-سير رسالةً مؤرخة في 30 آب/أغسطس 1603 كتبها ملك كوكو إلى أبي الملك المذكور، يشكو فيها من رؤية الوعود تتجدد كلّ عام وتحقيقتها يُؤجّل بالقدر نفسه. والحق أن الإسبان كانوا قد حاولوا، في حزيران/يونيو من السنة نفسها، إنزالاً محدوداً في أزفون. لكن حامية مركز تماقوت (Tamagut)، التي عزّزها عمّر بن القاضي خصيصاً لتغطية العملية، انضمت إلى الأتراك بقيادة ابن أخ آخر للملك. فدُبح الإسبان.

وقد بيّن هذا الحدث، إن كانت ثمة حاجةٌ إلى ذلك، عدم شعبية التحالف مع المسيحي، حتى لطرد التركي الذي كان القبائل يعتبرونه رغم كلّ شيءٍ العدوِّ الوراثي.

ومع ذلك، عاد ملك كوكو بعد قليل، كما رأينا، إلى اتصالاته مع إسبانيا، مع مواصلة كفاحه ضدّ الأتراك. ففي آذار/مارس 1604، أخفقت أيضاً محاولة تموين قامت بها فرقاطاتٌ من ميورقة (Majorque)، إذ اضطرّ الإسبان إلى نسف أنفسهم مع السفن التي كانوا قد جرّوها إلى البرّ، لأن الأتراك سبقوا قبائل كوكو إلى المكان.

في المقابل، نجح تموين سنة 1607، بدليل أن خوليا سان-سير ينشر رسالة شكرٍ من ملك كوكو. بل كان الحديث يدور عن هجوم مزدوج على بجاية والجزائر.

وفي شباط/فبراير 1608، أرسلت إسبانيا إلى كوكو دون مارتين دي لا سيردا (Don Martin de la Cerda). لكن هذا الأخير لم ينزل إلا ليعلم أن عمّر بن القاضي كان قد عقد لتوّه صلحاً مع الأتراك على أساس ردّ متبادل للفتوحات. وكانت المفاجأة كبيرة في مدريد، واستلزم الأمر وقتاً طويلاً نسبياً للاقتناع بالحقيقة.

ولم يُقد هذا الانقلاب صاحبه كثيراً. ففي السنوات اللاحقة، اضطرّ إلى دفع جزيةٍ للأتراك. واغتيل سنة 1618.

ونحن مدفوعون طبعاً إلى التأمّل في موقف ملك كوكو.

فأولاً، لماذا طلب النجدة من إسبانيا؟ لطرد الأتراك، يُجاب. في تلك الحقبة، لم يكن الخطر التركي قد زال. ومع ذلك، فقد هُزم الأوجاق، وسيتمكّن القبائل من اجتياح المتيجة. صحيح أنه من المُغري استغلال ضعف البوات لرمي عدوٍّ مكروه في البحر بشكلٍ نهائي. لكن يبدو بوضوح أن مزايا هذا التحالف لا تعوّض مساوئه.

الحواشي

18. بشأن هذا الحدث والأحداث اللاحقة، نُحِيل إلى خوليا سان-سير، م. س. إن موقع حصن تماقوت قد يُثير الالتباس. فمن المُغري التعريف به على أنه جبل تامقوت الواقع جنوب أزفون. لكن الوثائق التي نشرها خوليا سان-سير في الملحق تضعه قرب البحر. وثمة توضيحٌ مُقدمٌ ص (90) عن الحصن» الذي يُسمى تماقوت، وهو مجاورٌ للبحر. (que se llama Tamagote, la qual est vezina de la Marina). » وإذ لم نجد في ضواحي أزفون موضعاً يحمل اسماً مطابقاً، يمكن ربما التعريف به على أنه قرية تاقمونت (Taguemount)، عند الزرخفاوة (Zerkfaoua)، الواقعة على بُعد 4 كلم من أزفون التي تُشرف عليها، والتي يؤدي إليها طريقٌ خطٌّ على القمم شبه مستقيم. وهذه طبعاً ليست سوى فرضية.

ففي بلدٍ تُشغل المرابطون فيه القبائل، وهم لا يُخفون عداؤهم لمُلكية بني القاضي، تُوفّر حماية المسيحيّ ذريعةً ممتازة للساخطين كي يجلبوا التعاطف العام.

في المقابل، إذا رأينا أن هدف عمّر بن القاضي هو تعزيز سيطرته على القبائل مهما كلف الأمر، وهي السيطرة التي زعزعها الفعل المرابطي، فإن الأمور يمكن أن تُفسّر. فما هو، من جهةٍ أخرى، الموضوع المُتكرّر (leitmotiv) لمطالبه؟ استعراضٌ لسفن إسبانيا الحربية أمام سواحلها، وإرسال البارود والرصاص والثياب. والحال أن هذه التدابير تبدو أنسب لإثارة خيال رعاياه المتمرّدين من جهة، ولإعطائه من جهةٍ أخرى الوسائل اللازمة لتثبيت سلطته، منها لطرد الأتراك من الجزائر. ونجد حجةً إضافيةً لصالح هذه الفرضية في انقلاب 1608 فهذا يحدث فور تلقّي التموين المطلوب والقيام بالاستعراض البحري. وهاتان العمليتان، المُقدّمتان على أنهما حاسمتان، لم تُزعزعا الأتراك في شيء. بل أكثر من ذلك، فهؤلاء لا يزالون يُمسكون تماقوت بإحكام، وفي سنة 1607، يُقال إنهم استقروا في جمعة الصهاريج (Djemâ Saharidj)، فقطعوا مملكة كوكو شطرين.

وأمام هذا الدفع التركي، يُضطرّ عمّر بن القاضي إلى تغيير وجهته. فبات عليه الآن أن يتفاوض مع التركي، لا مع الإسباني، للحفاظ على مملكته. ويُعقدّ الصلح على أساس ردودٍ إقليمية متبادلة. ومن 1608 إلى 1618، تاريخ وفاته، سيحاول عمّر بن القاضي بمشقّة، وهو دائماً عرضةً لعداء المرابطين، أن يصون سلطته.

وخلافاً للرأي السائد، فإن تاريخ 1608 لا يُمثّل قطيعة العلاقات بين كوكو وإسبانيا. فنحن نعرف على الأقل أن كوكو حاول إعادة الربط منذ سنة 1609. وهذا التاريخ يتزامن من جهةٍ أخرى مع تفاقم العلاقات بين هذه المملكة والأتراك. ومن دون أن يكون ممكناً تقديم تسلسلٍ زمنيّ دقيق، فإن سنة 1610 تُسجّل اجتياحاً للمنتيجة من قِبَل القبائل، وهجوماً مضاداً للباشا مصطفى كوصا (Mustapha Kouça)، الذي يُقال إنه استولى حتى على كوكو. ووُقع صلحٌ جديد لم يلبث أن نُقض. ومن المُغري أن نرى في استئناف المفاوضات مع إسبانيا تمهيداً لهذه الأحداث. فبرسائل مؤرّخة في 15 كانون الثاني/يناير 1610، مكتوبة بيد مرتدّ صقلّي في خدمة كوكو، بإيطالية رديئة، وموجّهة إحداها إلى الملك فيليب الثالث، والأخرى إلى دوق ليرما (Duc de Lerma)، كان عمّر يجهد

الحواشي

19. راجع غرامون) دي(، م. س.، ص. 147.
20. جميع المراجع المتعلقة بمفاوضات 1609-1610 موجودة في أرشيف سيمانكاس، Estado, legajo 494. ويتضمّن هذا الملف رسالتين بالإيطالية، موجّهة إحداها إلى الملك والأخرى إلى دوق ليرما؛ ورسالة بالعربية موجّهة إلى الملك؛ وملخصاً لمراسلات كونت أغيلار (Comte d'Aguilar)؛ ومسوّدة مداوات مجلس الحرب.
21. غرامون) دي(، م. س.، ص. 150.
22. كان دوق ليرما، حظي فيليب الثالث، يحكم إسبانيا عملياً من 1598 إلى 1618.

لاستئناف الاتصالات مع مدريد. وكان يشرح فيها الضرورة التي وجد نفسه فيها) سنة (1608 لعقد الصلح. ويغتنم ذلك للتلميح إلى مصير» المغاربة (moros) «الأربعة الذين أبحر بهم مارتين دي لا سيردا أثناء مهمّته الفاشلة في السنة نفسها، مع إلقاء مسؤولية الإخفاق على هذا الأخير. وكان بأسف لأن إسبانيا لم تُرسل إليه رسولاً من نوع الأب ماتيو) الذي لقي حتفه أثناء خيانة تماقوت. (وكان يبيّن محاولاته المتعدّدة لإقامة اتصالٍ عبر وهران، وأخيراً يُعلن سفر المغربي موسى (Moussa)، الذي سبق استخدامه في هذه الشؤون، إلى وهران دائماً. وهو ما يدع الظنّ بأن الأتراك كانوا لا يزالون يُسيطرون على القبائل الساحلية، وأن الاتصالات لم تكن تتمّ إلا براً. وكانت الرسالة مختومةً بختمه، وهو ختمٌ موثّقٌ بعبارةٍ بالعربية بخطّ يده. وكون أنه اختار مرتدّاً إيطالياً مُحَرّراً يُثبت، إن كانت ثمة حاجةٌ إلى ذلك، قلةُ الثقة التي صار عمّر يُوليها، من حينئذٍ، لحاشيته.

ومراسلةٌ أخرى مؤرّخة في 14 آذار/مارس 1610، نقلها من وهران كونت أغيلار، تتناول نقطةً محدّدة: المطالبة بإرسال سفينةٍ شراعيةٍ صغيرة (brigantin) لإعادة المسيحيّين اللاجئين بكوكو. ويقترح عمّر أيضاً أن تُعيد السفينة المذكورة

بالمناسبة نفسها» المغاربة (Moros) «الذين أخذهم دون مارتين دي لا سيردا، وكذلك مبعوثيه الذين لا يزالون بوهران، نظراً للخطر الذي قد يتعرضون له لو عادوا برّاً.

ووثائق أخرى مُدرّجة تقدّم تفاصيل جديدة مع تقاطعها مع المراسلة السابقة. ففي صيف 1609، كان ملك كوكو قد أرسل أوّل رُسله، وعددهم أربعة. لكنهم، للأسف، أُسروا في مستغانم. وبعد وقتٍ قصير، وصل إلى وهران «مغربيّان» آخران، مكلفان أيضاً بالتفاوض. وكان موقف كونت أغيلار حذراً جداً. فقد أرسل المراسلة إلى مدريد لكنه رفض المرور للمبعوثين. وفي تلك الأثناء وصل بدوره المغربي موسى، المعروف لدى الإسبان لمشاركته في مفاوضات سابقة. وكان يحمل رسائل كان عليه أن يسلمها بيده إلى ملك إسبانيا، لكنه في النهاية سلّمها إلى كونت أغيلار الذي أرسلها إلى مدريد مع تقرير عام عن المفاوضات.

ونحن نملك جواب مجلس الحرب على مجموع هذه المقترحات. فمن الواضح أن الإسبان لم يكونوا قد تجاوزوا بعد خيبة الأمل التي سببها لهم انقلاب عمّر سنة 1608. ويُقدّر فيه أن يُؤمّر كونت أغيلار بأن يكتفي بالكلام الطيّب وألا يلتزم بشيء. فإن كان لدى «المغاربة» «ما يقولونه غير ذلك، فلْيُبلغوه إيّاه، وسيصلهم الجواب بوساطته. وأخيراً، رُفِضت السفينة الصغيرة، ويُرجى من المبعوثين العودة إلى كوكو من حيث أتوا.

الحواشي

23. يجدر في الواقع الإشارة إلى أن مفاوضات سنوات 1603 إلى 1608 كانت تتم بوساطة نائب الملك على ميورقة (Vice-roi de Majorque).

24. كان كونت أغيلار حاكماً على وهران من آب/أغسطس 1608 إلى تشرين الأول/أكتوبر 1616.

ورغم هذا الرفض القاطع، هل واصل عمّر بن القاضي التماس النجدة من مدريد في السنوات اللاحقة؟ إن تمحيص الأرشيفات الإسبانية لا يزال ينتظر الإنجاز إذا أردنا الإجابة عن هذا السؤال.

مات عمّر مغتالاً سنة 1618، تنفيذاً — كما يُقال — لنبوء سيدي منصور. ويجعل بوليفة، مستنداً إلى المصادر المrapطية، من عمّر طاغية. وقد كان على كلّ حال آخر كبار ملوك كوكو. فقد تخلّى خلفاؤه في الواقع عن هذه البلدة وهبطوا إلى مرتبة رؤساء من الدرجة الثانية، وبخاصّة ابتداءً من النصف الثاني من القرن السابع عشر. ومع ذلك، فقد كانت قوّة التقليد من القوّة بحيث ظلّ اسم «ملك كوكو» يُنسب إليهم من قِبَل الرّحالة والدبلوماسيين المسيحيين. ففي سنة 1752، يا ثرى هل كان آخر بني القاضي، المنكفئون في أعالي الصومام (Haut Sebaou)، وسط قبائل مرقّتها السياسة التركية، لا يزالون يتذكّرون الزمن الذي كان فيه جدّهم عمّر يتبادل السفراء مع فيليب الثاني ملك إسبانيا؟

بيير بواييه (Pierre BOYER)

محافظ رئيسي لأرشفيف ما وراء البحار إكس (Aix)